الإسهام العلمي لمدينة برشك بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، قراءة في دور ولدي الإمام.

The scientific contribution of the city of Bresk in the Maghreb Central during the Middle Ages - reading in the role of the imam's children .

بشير مبارك.
المركز الجامعي عبد الله مرسلي ؛ مخبر الدراسات التاريخية والأثرية؛ تيبازة (الجزائر).
البريد الإلكتروني: *mebarekbachir862@gmail.com*

تاريخ الإرسال: 21/05/05؛ تاريخ القبول:21/06/02؛ تاريخ النشر:21/06/25

الملخص:

تهدف الورقة إلى الحديث عن بعض المدن المنسية في تاريخ الجزائر، ويأتي في مقدمتها مدينة برشك (غوراية) التابعة إداريا لولاية تيبازة، هذه المدينة كان لها أدوار في مختلف المجالات السياسية، الاقتصادية، والثقافية خلال العصر الوسيط، في عملنا هذا سنركز على إسهامها الثقافي والفكري من خلال ما أنجبته من علماء كان لهم الفضل في ازدهار الحياة العلمية بالمغرب الأوسط أيام الدولة الزيانية، ونخص بالذكر العالمين الشهيرين اللذان تكلمت عنهما المصادر الوسيطة باستفاضة كثيرة، هذين العالمين هما ولدا الإمام أبو زيد وأبو

عيسى اللذان تنسب إليهما المدرسة الشهيرة بتلمسان – مدرسة إبني الإمام.

الكلمات المفتاحية: برشك؛ تيبازة؛ غورايـة؛ المغرب الأوسط؛ ولدا الإمام.

Abstract:

The research paper aims to talk about some of the forgotten cities in Algeria's history, first and foremost the city of Bresk (Goraia), which is administratively affiliated with the state of Tipaza. This city had roles in various fields: political, economic and cultural during the Middle Ages, So that we will focus on its cultural and intellectual contribution through the scientists who were credited with the flourishing of scientific life in the Maghreb Central during the Zayanide state , In particular the famous intellectuals that the median sources have talked about at great length,These two thinkers are the sons of Imam Abu Zeid, and Abu Issa, to whiche the famous school of Tlemcen is attributed- son imam's school.

Key word: Bresk ;tipaza ; Goraia ; Maghreb Central ; son imam's .

مقدمة:

المغرب الأوسط هو تلك الرقعة الجغرافية الواقعة وسط المغرب الإسلامي المحصور بين المغربين الأدنى والأقصى، صعب على الباحثين تحديد امتداده الجغرافي بدقة خلال الفترة الوسيطة لعدة اعتبارات منها التقلبات السياسية التي طرأت على المنطقة، هذه الرقعة -المغرب الأوسط -حفلت بأحداث كثيرة منها السياسية، والاجتماعية، والثقافية، والعسكرية فلا غرابة إذ حظيت باهتمام الدارسين من

مؤرخين وباحثين، لكن ما يلاحظ على دراساتهم ميلها نحو جوانب معينة وإهمالها لجوانب أخرى. بحيث نجد جل كتاباتهم دارت حول المواضيع السياسية، والعسكرية في حين بقية الجوانب الاقتصادية، والفكرية، والاجتماعية، والعمرانية ما تزال تحتاج إلى دراسات عميقة.

وإن وجدت دراسات في الجوانب المذكورة فإننا نجدها تركز على حاضرة أو مدينة وأهملت مدن وحواضر أخرى كان لها صيت خلال العصر الوسيط تكلم عنها الرحالة والجغرافيين، وفي مقدمة تلك المدن مدينة تيبازة (تافزة) وبرشك. هذه المدينة -برشك - أنجبت علماء فطاحل كان تأثيرهم واضح على الحياة العلمية في المغرب الأوسط أيام الدولة الزيانية ولعل أبرزهم ولدي الإمام .

اعتبارا لذلك ستكون ورقتي البحثية هذه موسومة بـ:" الإسهام العلمي لمدينة برشك بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط - قراءة في دور ولدي الإمام.

في هذه الورقة سأتكلم باختصار عن حاضرة برشك، ثم أعرف بالعالمين ولدي الإمام ثم أتحدث عن أثرهما العلمي التعليمي في المغرب الأوسط خلال الفترة الزيانية.

تتمحور الإشكالية التي يطرحها البحث في: الأثر العلمي لمدينة برشك خلال العصر الوسيط، وللإجابة عنها يترتب علينا الإجابة عن تساؤلات فرعية أهمها:

- كيف وصفت كتب الفترة الوسيطة مدينة برشك ؟

- من هما ابني الإمام ؟
- كيف خدما الحياة العلمية بالمغرب الأوسط ؟

أسئلة تطرح نفسها بإلحاح في هذه الدراسة، وللإجابة عنها كان لا بد من اعتماد واستخدام منهج تاريخي معين بالرجوع إلى المادة العلمية المبثوثة في مختلف أنواع المصادر التي تناولت الموضوع أو طرقته في أحد جوانبه.

1 -نبذة تاريخية عن مدينة برشك خلال العصر الوسيط:

من خلال اطلاعنا على كل ما كتب من دراسات حديثة حول تاريخ مدن المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط وجدنا أن اهتمام جل الباحثين قد انصب على مدن معينة دون غيرها في صورة تلمسان، قسنطينة، تاهرت، بجاية، مازونة...، وهذا راجع لعدة اعتبارات منها توفر المادة العلمية في مختلف المصادر، في حين نجد أن مدن أخرى لم تأخذ حقها من الدراسة والبحث بل لم يتم ذكرها قط وهنا أقصد مدينة برشك –غوراية - التابعة إداريا لولاية تيبازة، هذه المدينة تردد ذكرها على ألسن رحالة وجغرافيي القرن الخامس الهجري (11م) وصولا إلى القرن العاشر هجري (16م) هؤلاء زاروا المغرب الأوسط نذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر: "الشريف الإدريسي في كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، والزهري أبي بكر في كتاب الجغرافيا، ويحيى ابن خلدون في كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، وابن فرحون المالكي في كتاب الديباج المذهب في ذكر أعيان علماء المذهب، وابن خلدون عبد الرحمن في كتاب العبر، وعبد الله التنسي في كتاب نظم الدر والعقيان، والحميري عبد المنعم

في كتابه الروض المعطار في خبر الأقطار، ومارمول كاربخال في كتاب إفريقيا، والحسن الوزان في كتاب وصف إفريقيا، والآغا بن عودة المزاري في كتاب طلوع سعد السعود" وغير هؤلاء كثير.

إن الحديث عن المصادر التي ذكرت المدينة - برشك - خلال العصر الوسيط يدفعنا إلى توضيح بأن تاريخ المدينة لم يطرق بالدراسة من قبل الباحثين والمؤرخين المعاصرين اللهم إذا ما استثنينا بعض الرسائل الأكاديمية في صورة أطروحة الدكتوراه للباحثة بورملة خديجة الموسومة بـ:" التجارة الخارجية للمغرب الأوسط في حوض البحر المتوسط من القرن السادس إلى التاسع الهجري 12 -15م" تطرقت فيها إلى أبرز المنتوجات الزراعية بالمدينة، كما خصصت لذلك خرائط حدّدت عليها موقع معظم مدن الجزائر وبينها برشك .

إذن من خلال ما سبق يتضح أنه هناك عدد كبير من الجغرافيين والرحالة والمؤرخين الذين تحدثوا عن مدينة برشك خلال العصر الوسيط علما أننا لم نورد كل الأسماء التي دوّنت تاريخ المدينة، وبذلك يتوجب علينا كباحثين في حقل التاريخ أن نقرأ تلك الكتب قراءة متأنية حتى نقف عند الدور الحضاري لمختلف مدننا عامة ومدينة برشك خاصة خلال العصور الغابرة، لنثبت عراقة تاريخ بلادنا وفيما يأتي سنقدم نبذة تاريخية عن مدينة برشك استنادا على المصادر التي وقعت بين أيدينا.

كما أشرنا سابقا تمثل برشك حاليا مدينة قوراية التابعة إداريا لإقليم ولاية تيبازة، وردت المدينة عند الرحالة والجغرافيين بأسماء مختلفة، فعند مارمول كاربخال جاءت باسم: "**بريشكار**"، وذكرها

بطليوس باسم "**كامبي جيرماني**"، وسماها بعض المؤلفين العرب "**بئر شاق**"(مارمول كاربخال، 1998، ج 02: 355) ، وجاءت عند الحسن الوزان باسم "**بْريشْك**"(الحسن الوزان، 1983، ج 02: 07) ، وذكرها صاحب كتاب طلوع سعد السعود باسم "**فرشك**"(الأغا بن عودة المزاري، دت، ج 01: 165) ، وأوردها باسم "**بركش**" في موطن آخر من كتابه عند قوله:" وبقي أبو عبد الله في الجهة الغربية ثم توجه للشرقية فدخل بركش وتنس ثم توجه إلى تلمسان ..." (الأغا بن عودة المزاري، دت، ج 01: 193).

من خلال النصوص السابقة يتضح أن المدينة وردت بتسميات مختلفة لكن الاسم الأقرب إلى الصواب الذي تداوله المؤرخين قديما والباحثين حديثا هو "برشك".

تحدث الجغرافيين والرحالة عن موقعها الجغرافي والفلكي فقال صاحب الروض المعطار "برشك مدينة ساحلية صغيرة على تل وعليها سور تراب وهي على ضفة البحر، بينها وبين مدينة تنس على الساحل (36) ستة وثلاثون ميلا، تبعد عن مدينة شرشال بحوالي (20) عشرون ميلا"(الحميري محمد، 1984: 88) وهي نفس المسافة التي حدّدها الشريف الإدريسي (الشريف الإدريسي، 2002: 257 -258)، وتبعد عن وقور وهي مرسى مسمى بوقور تقويرا بحوالي (20)عشرون ميلا(الشريف الإدريسي، 2002: 272 -273)، أما الحسن الوزان لم يحدد المسافة بينها وبين مدينة مستغانم واكتفى بقوله أنها تبعد عنها بعدة أميال (الحسن الوزان، 1983، ج02: 32).

أما عن موقعها على البر فتبعد برشك عن تنس بحوالي ستة وستون ميلا يقول الإدريسي:" ومن مدينة تنس إلى برشك على الساحل ستة وستون ميلا"(الشريف الإدريسي، 2002: 257)، وقال مارمول تقع برشك على بعد ثمانية فراسخ من مدينة تنس (مارمول كاربخال، 1998، ج02: 355).

ما ذكره الرحالة حول موقعها الجغرافي يؤكد بأن برشك مدينة ساحلية تمثل مدينة غوراية حاليا التابعة لإقليم ولاية تيبازة، وهو ما أثبتته بعض الدراسات حين وضعت خرائط وضحت فيها موقع مدن الجزائر خلل العصر الوسيط، وإذا أمعنا النظر في المسافة بينها وبين مدينتي تنس وشرشال حسب ما ذكرته المصادر وبناء على الموقع الحالي للمدن الثلاث - تنس، غوراية، شرشال - نؤكد بأن برشك تمثل حاليا مدينة غوراية.

هذا وقد حدّد بطليوس موقعها الفلكي عند خمس عشرة درجة وخمسين دقيقة من خطوط الطول، وثلاثة وثلاثين درجة وست دقائق من خطوط العرض (مارمول كاربخال، 1998، ج02: 355)، تشرف المدينة على البحر الرومي الذي يصل عرضه بين المجرى وبرشك مائة وخمسون فرسخا"(الزهري أبي بكر، د ت: 127 -128).

ما يلاحظ على تحديد الموقع الفلكي للمدن خلال العصر الوسيط أنه يختلف عن التحديد الحالي الذي يعتمد على تحديد الموقع الفلكي بناء على شمال وجنوب خطوط الطول ودوائر العرض.

كما تحدث الزهري صاحب كتاب الجغرافيا عنها في الجزء السادس من كتابه هذا الذي خصّصه للحديث عن بلاد المغرب، إذ وضعها ضمن الصقع الأول الذي يضم بلاد إفريقية فقال:" وكذلك في

غربي هذا الصقع في البر مدينة مليانة، وزواوة، وقسنطينة، وقلعة بني حماد، ومدينة برشك"(الزهري أبي بكر، د ت: 107)، كما ذكرها الإدريسي عند حديثه عن مدن المغرب الأوسط فقال:" ومدينة تلمسان وطن وقرى، وصفروى، ومغيلة واقر سيف، ومليلة، ووهران، وتاهرت وأشير وفيه من بلاد المغرب الأوسط تنس، وبرشك، وجزائر بني مزغنة، وتدلس..." (الشريف الإدريسي، 2002: 222).

عموما تتفق المصادر التاريخية والجغرافية أن برشك مدينة صغيرة على تل عليها سور تراب وهي على ضفة البحر(الحميري محمد، 1984: 88)، وهي مدينة قديمة بناها الرومان (مارمول كاربخال، 1998، ج 02: 355)، ويذكر الحسن الوزان رواية مخالفة عن رواية كاربخال فقال أنها مدينة بناها الأفارقة (الحسن الوزان، 1983، ج 02: 32)، تعتبر من أبرز مدن المغرب الأوسط المندثرة(الزهري أبي بكر، د ت: 138).

تعرضت المدينة إلى هجوم الإفرنج سنة (539هـ/1144م) حين خرج أسطولهم من صقلية إلى ساحل إفريقية فاستباحوا المدينة بقتل أهلها وسبي نسائها وحريمها وباعوهم في صقلية (عز الدين بن الأثير، 2003، مجلد 09: 334).

2 -التعريف بولدي الإمام عالما برشك:

اتصال ورقتنا البحثية بالدور الثقافي والعلمي لمدينة برشك والذي حصرناه في ابنيها العالمين ولدي الإمام جعلنا نفضل عدم التطرق لتاريخها السياسي، والعسكري، والاقتصادي، والاجتماعي ونركز فقط على دورها الفكري أيام الدولة الزيانية باعتبار أن العالمين قد

برزا أيام مجدها على عهد السلطان أبو حمو موسى الزياني. فمن هما ولدي الإمام ؟

لم تسعفنا المصادر بمعلومات كثيرة عن نسب أو أصل ولدي الإمام واكتفت بذكر والدهما الإمام من برشك دون التطرق إلى نسبه وتضيف إلى ذلك مقتله على يد أحد الزعماء وهو "زيري"، يقول ابن خلدون:" كان أبوهما من أهل برشك وكان زيري قد قتله لأول ثورته غيلة"(ابن خلدون عبد الرحمن، 2000، ج 07: 133).

على وجه العموم يعتبر الرجلان من أبرز ما أنجبت الجزائر من فطاحل العلماء خلال العصر الوسيط، اسميهما على التوالي: "عبد الرحمن وأخوه عيسى" (ابن خلدون عبد الرحمن، 2006، مجلد 07: 118)، علما أن التنسي ذكرهما باسم أبو زيد وأبو موسى عند قوله:" العالمان أبو زيد وأبو موسى ابنا الإمام..." (التنسي محمد، 1980: 130)، وفي موطن آخر من كتاب العبر لابن خلدون نجده يؤكد اسم الابن الأكبر للإمام وهو عبد الرحمن فيقول:"...فبعث إليه رئيس الفتيا بدولته أبا زيد عبد الرحمن بن محمد الإمام..." (ابن خلدون عبد الرحمن، 2000، ج 07: 133)، وبذلك فإن ما أورده التنسي عن اسميهما صحيح، وما يؤكد صحته ما أورده يحيى ابن خلدون عند قوله:" "والشيخان الفقيهان أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى... "(ابن خلدون يحي، 1980، ج 01: 130).

كان ولدي الإمام من طلبة العلم حيث أخذا عن علماء مسقط رأسيهما علما بأن المصادر لم تذكر من هم العلماء الذين أخذا عنهما هناك، هذا ولم يكتفي الرجلان بأخذ العلم عن أهل برشك بل التحقا

بمدينة مليانة للدراسة، ثم جزائر بني مزغنة بحكم قربهما الجغرافي من المدينة، شغفهما بنهل العلوم جعلهما يرتحلان إلى تونس فقرء بها (ابن خلدون عبد الرحمن، 2000، ج07: 133) على يد ابن جماعة واليفرني "(ابن خلدون عبد الرحمن، 2006، مجلد 07: 118)، والملاحظ أن تونس لم تشفي غليلهما لذلك قررا الرحلة نحو بلاد المشرق أين تتلمذا على كبار علماءه في مقدمتهم المزني بدمشق وناظرا تقي الدين بن تيمية، ثم عادا إلى الجزائر"(ابن خلدون عبد الرحمن، 2006، مجلد07: 118).

الشيء الأكيد أن ولدي الإمام عادا إلى المغرب الأوسط بعلم غزير وإلا كيف نفسر انبهار السلطان الزياني أبو حمو موس بهما، حيث خصهما بمنزلة رفيعة وبنا لهما المدرسة الشهيرة باسميهما أين تتلمذ على أيديهما ثلة من علماء المغرب الأوسط كما سنرى ذلك لاحقا.

احتل إبنا الإمام مكانة هامة لدى سلاطين بني زيان حيث تبوأ أكبرهما وهو أبا زيد عبد الرحمن رئاسة الفتوى عند الزيانيين يقول ابن خلدون: "خشيه زيري على نفسه وخطب منه الأمان على أن ينزل له عن المصر فبعث إليه رئيس الفتيا بدولته أبا زيد عبد الرحمن بن محمد الإمام..." (ابن خلدون عبد الرحمن، 2000، ج07: 133).

هذه الحظوة والمكانة برزت عند السلطان أبو حمو موسى الأول وابنه أبو تاشفين حيث احتفى بهما: "...كان أبو حمو أشد اعتناء بهما ثم بعده أبو تاشفين..." (الحفناوي أبو القاسم، 2007: 17).

إن حظوتهما عند السلاطين لم تقتصر فقط على سلاطين بني زيان، بل كانت لهما مكانة عظيمة عند سلاطين بني مرين أيام

احتلالهم للمغرب الأوسط، حيث استعملوهم في خطة القضاء بمليانة (ابن خلدون عبد الرحمن، 2000، ج 07: 133) بعدما زادت حظوتهما عند أبي الحسن المريني ..."(الحفناوي أبو القاسم، 2007: 17) .

إضافة إلى هذا نال الرجلان الاحترام من قبل علماء المشرق والمغرب حيث أثنى عليهما كثيرا جلال الدين القزويني بالمشرق فقال: " بمثلهما يفخر المغرب..." (ابن مرزوق التلمساني، 1981: 120) ويضيف صاحب الديباج المذهب قائلا:" ....هذان الأخوان هما فاضلا المغرب في وقتهما ..." (ابن فرحون المالكي، 1996: 250).

من خلال النصوص السابقة يتضح لنا أن إبني الإمام كانت لديهما رغبة كبيرة في تعلم العلم وتحصيله ودليل ذلك ارتحالهما من برشك صوب مليانة ثم جزائر بني مزغنة فتونس فالمشرق، هذه الرحلة كان لها فضل كبير في المستوى العلمي الذي وصلا إليه الأمر الذي جعل سلاطين بني مرين وسلاطين بني زيان يستقدمونهما ويقربونهما ويحتفون بها حتى يستفيدوا منهما في بناء دولتهم.

تذكر بعض الدراسات أن إبني الإمام قد استفادا من الإقطاع الزراعي الذي منحه يغمراسن للفقهاء أمثال التنسي بعد قدومه من تنس ثم بعد وفاته انتقل إليهما في عهد السلطان أبي حمو موسى الأول (708 -718هـ/1308 - 1318م) (فؤاد طوهارة، 2014: 73)، وهذه تعتبر إشارة صريحة إلى المكانة التي حازها إبنا الإمام عند السلطان الزياني إضافة إلى الإشارات المذكورة سابقا.

3 -نبذة عن المدرسة التي ارتبطت باسم ولدي الإمام:

كما أشرنا سابقا أن إبنا الإمام كانا فخر أهل المغرب وفاضلاه خلال العصر الوسيط نتيجة المكانة العلمية التي وصلا إليها، هذه المكانة برزت في التعليم حيث درّسا محمد ولد منديل الكناني صاحب أشغال المرينيين، هذا الأخير أشاد بمكانتهما في العلم لدى السلطان أبي زيان وأبي حمو وكان لذلك أثر ووقع كبيرين على أبي حمو (ابن خلدون عبد الرحمن، 2006، مجلد 07: 118).

لقد زاد بروزهما في ميدان التعليم بعد أن أقام لهما السلطان الزياني المدرسة التي سميت بهما وهي مدرسة ولدي الإمام التي تعتبر أول مدرسة أقيمت بالمغرب الأوسط أسّسها السلطان الزياني أبو حمو موسى الأول سنة (710هـ/1310مـ) احتفاء بالعالمين الفقيهين ابني الإمام بعد أن استقل بأمور الدولة الزيانية يقول التنسي:" وكان هذا السلطان المرحوم صاحب آثار جميلة وسير حسنة محبا في العلم وأهله، وورد عليه بعد موت يوسف بن يعقوب الفقيهان العالمان أبو زيد وأبو موسى ابنا الإمام، فلم ير ما يؤدي به شكرا لله على النعمة التي منَ الله عليه من مقتل عدوه وتعجيل الفرج إلا الاعتناء بالعلم والقيام بحقه فأكرم مثواهما واحتفل بهما وبنا لهما مدرسة التي تسمى بهما..." (التنسي محمد، 1980: 130).

إضافة إلى بناء المدرسة ابتنى لهما السلطان دارين خصيصا لهما وبالقرب من المدرسة المذكرة وعينهما للفتوى والشورى وبذلك احتلا مكانة عالية في دولته:"...وابتنى لهما دارين عن جانبيها...واختصهما بالفتوى والشورى فكانت لهما في دولته قدم عالية..." (ابن خلدون عبد الرحمن، 2006، مجلد 07: 118).

وقع اختلاف بين الأخوين ابن خلدون يحيى وعبد الرحمن في تحديد موقع المدرسة، حيث جعلها يحيى داخل باب كشوط عند قوله: "والشيخان الفقيهان أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى...نزلا تلمسان في أيام السلطان المرحوم أبي حمو...فأكرم مثواهما وابتنى لهما مدرسة مسماة بهما الآن داخل باب كشوط" (ابن خلدون عبد الرحمن، 2006، مجلد 07: 130)، وجعلها عبد الرحمن بالمطمر فقال:"...ووقع ذلك على أبي حمو أبلغ المواقع حتى إذا استقل بالأمر ابتنى المدرسة بناحية المطمر من تلمسان لطلب العلم..." (ابن خلدون عبد الرحمن، 2006، مجلد 07: 118)، وحدّدت بعض الدراسات موقعها إلى الشمال الغربي من مسجد سيدي بلحسن (عبد العزيز لعرج، 2007: 21 -22).

إنَ المصادر التي تحدثت عن مدرسة ولدي الإمام لا تمدنا بمعطيات كافية حولها، كالظروف المحيطة بتشييدها وشكلها من الناحية المعمارية، وفي هذا الجانب قد ساهمت بعض الدراسات في تحديد موقعها، وأهم ما اشتملت عليه، معتمدة في ذلك على إشارات (جورج مارسي *George Marsais*) الذي حدّد موقعها غرب مسجد ابني الإمام وشماله، تألفت من قاعتين كبيرتين يتلقى فيها الطلاب دروسهم على يد ولدي الإمام (بن قربة صالح، 2007: 87).

وأشار المقري أن المدرسة احتوت خزانة كتب حين زارها سنة (1010هـ/ 1601مـ) فقال: كانت في حالة مزرية متدنية فارغة من الكتب مملوءة بنفايات الأنعام، يقول: "...في حدود سنة عشرة وألف ذهب معنا في جملة من العلماء والأعيان من أشياخنا وأصحابنا إلى المدرسة الشهيرة الصيت بالمغرب المعروفة بمدرسة ولدي الإمام فسرحنا

النواظر في محاسن المدرسة المذكورة وطفنا على رسومها الباقية حتى وصلنا خزانة الكتب المشهورة فألفيناها خاوية على عروشها وقد ملئت بالزبل، فقال سيدي علي المذكور – يقصد الفقيه محمد بن علي البهلول من فقهاء الجزائر - مستجيرا الجماعة: خزانة كتب مملوءة بالزبل في مدرسة ابني الإمام " (المقري أبو العباس، 2004: 264).

هذا النص لا يبين لنا الحال المزرية للمدرسة فقط بل يوضح لنا كذلك الحالة العلمية العامة المتردية للمغرب الأوسط أواخر العهد الزياني بحيث لم يعد للسلاطين اهتمام كبير بالجانب العلمي، والدليل أن سلاطين بني زيان قد عزفوا عن الاهتمام بالعلماء وبناء المدارس، وإلا كيف نفسر اجتهاد علماء ملياني الذين شجعوا الوقف من أجل بناء مدرسة المدينة الشهيرة.

استمرت المدرسة في تأدية مهامها التعليمية والتربوية حتى القرن العاشر الهجري (ق16مـ) هذا إذا اعتمدنا على النّص الذي أورده المقري صاحب الرحلة إلى المغرب والمشرق في وصف خزانة كتب المدرسة التي وجدها في حالة مزرية حين وجدها مملوءة بالزبل، من خلال النص يمكننا القول أنّ المدرسة خلال الفترة التي زارها فيها لم تكن تلقى فيها الدروس التعليمية خاصة عندما يقول"...فسرحنا النواظر في محاسن المدرسة المذكورة وطفنا على رسومها الباقية..." فالكلمتان الأخيرتان يفهم منهما أن المدرسة لم تعد تدرس فيها العلوم خلال القرن الحادي عشر هجري (17مـ)، وإذا ما اعتمدنا على هذا النص فإن ما أورده صالح بن قربة الذي اعتمد هو الآخر على ما أورده

(بارجيس *Perges*) بأن المدرسة استمر نشاطها حتى الثالث عشر هجري (ق19م) يحتاج إلى بعض المراجعة.

تصدى إبنا الإمام للتدريس بالمدرسة المذكورة "...وجعل لهما التدريس فيها في إيوانين معدين لذلك واختصهما بالفتوى والشورى فكانت لهما في دولته قدم علية ..." (ابن خلدون عبد الرحمن، 2000، ج07: 134) فساهما مساهمة بالغة في نشر العلوم بالمغرب الأوسط وبالخصوص في العاصمة تلمسان التي كانت مركز إشعاع علمي للدولة الزيانية.

4 -الأثر العلمي والفكري لولدي الإمام بالمغرب الأوسط:

كان لولدي الإمام إسهام في ازدهار الحياة العلمية بالمغرب الأوسط من خلال نشر العلوم خاصة الشرعية منها: "...توجها إلى تلمسان فكانت لهما الرياسة...ونشرا بها العلوم ما بقيت آثاره إلى الآن " (التنسي محمد، 1980: 139).

فالمطلع على الحياة العلمية بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني يجدها مزدهرة كثرت فيها حلقات العلم بعدما كثر عدد الطلبة الذين كان لهم إنتاج علمي وفير، جل هؤلاء الطلبة تتلمذوا على يدي أبناء الإمام كما سنوضح ذلك فيما يلي.

في المدرسة المذكورة – مدرسة ولدي الإمام -مارس الشيخان مهنة التعليم حيث درس عليهما خلق كثير منهم الكبير والصغير وتخرج على أيديهما فطاحل العلماء الذين تصدوا لمهام التدريس والفتيا والقضاء بعد حصولهما على الإجازة في مختلف العلوم "...وتركا بتلمسان خلفا كثيرا ينتحلون العلم كبيرا وصغيرا بلغ منهم الكثير

مقام التدريس والعلم والفتيا في النوازل نجابة درس ونظر" (ابن خلدون يحيى، 1980، ج 01: 130).

علما أن المصادر لا تمدنا بمعلومات عن الطلبة الذين كانوا يدرسون بها، وتكتفي بعضها بالقول أن هذه المدرسة تخرج منها الأفاضل:"...تخرج منها الكثير من الفضلاء..." (ابن فرحون المالكي، 1996: 250).

هذا النقص تمكنا من استدراكه من خلال الرجوع إلى كتب التراجم التي زودتنا ببعض الأسماء التي أخذت العلم عن ابني الإمام، وكذا إنتاجهم الفكري علما أنها لا تذكر بصراحة المكان الذي تلقوا فيه العلم، لكن نرجح بأنَ تلك الأسماء قد درست بمدرستهما، ومنها نذكر:

الآبلي يعتبر من أبرز الأسماء التي تتلمذت على يد ولدي الإمام حسب ما ذكر ابن مرزوق وابن خلدون يحيى "...وممن لازمه بتلمسان وكان له مدة قد استوطن المغرب الفقيه الأستاذ...أبو عبد الله بن علي الآبلي شيخ العلوم العقلية...أخذ قديما بتلمسان عن...أبي موسى ابن الإمام "(ابن مرزوق التلمساني، 1981: 266) " شيخنا العالم...أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي...أخذ في بلده عن الشيخين العالمين أبي زيد وأبي موسى ولدي الإمام..."(ابن خلدون يحيى، 1980، ج01: 221).

إضافة إلى هذا أسعفتنا النصوص بالعلوم التي درسها الآبلي على يد الشيخان في مقدمتها المنطق والأصول بعد عودته من الحج :"الإمام العلامة...من أهل آبلة...نشأ بتلمسان فانتحل العلم...سار إلى الحج...قال فحججت ورجعت إلى تلمسان فقرأت المنطق والأصلين على أبي موسى

ابـن الإمـام..." (التنبكتي أحمد بابا، 2004: 66)، كـان ولـدي الإمـام يمجدانـه كـثيرا "...ولما لازم مجلس مولانا المرحوم الإمامان، كانا يجريان ذكره وعرَفاه قدره..." (ابن مرزوق التلمساني، 1981: 267).

الواضح أن ولدي الإمام قد ساهما في تكوين نخبة من العلماء منهم الآبلي الذي انتفع به بشر كثير (ابن مرزوق التلمساني، 1981: 267) فتخرج عليه علماء أجلاء منهم سعيد بن محمد العقباني(شاوش الحاج محمد، 1995: 250).

وممن أخذ عنهما كذلك الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني (ت756هـ/1355مـ)، شرّفه السلطان الزياني أبو حمو فيما بعد ببناء مدرسة له:" ومنهم صاحبنا الإمام العالم...أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني نسبة إلى قرية من أعمال تلمسان تسمى العلوين..نشأ بها...واختص بأولاد الإمام وتفقه عليهما في الفقه والأصول والكلام..." (ابن خلدون عبد الرحمن، 2005: 170).

ومنهم أيضا سعيد بن محمد العقباني أخذ العلم عليهما وعلى الآبلي " أبو عثمان سعيد بن محمد التجيبي العقباني ولد بتلمسان عام (720هـ/1321مـ) وبها نشأ وقرأ على الآبلي وابني الإمام وغيرهم حتى صار إمام تلمسان..." (شاوش الحاج محمد، 1995: 204)، ويبدوا أنه درس عليهما الفقه بالدرجة الأولى "...أخذ عن...ابني الإمام وبهما تفقه ..." (شاوش الحاج محمد، 1995: 250) وبعد أن وصل إلى درجة المشيخة أخذ عنه جماعة من العلماء الذين برزوا بالمغرب الأوسط مثل: "إبراهيم المصمودي، وأبو يحيى الشريف، وابن مرزوق الحفيد، وأبو العباس، وابن زاغو وغيرهم..." (شاوش الحاج محمد، 1995: 250) وكان قد ساهم

في إثراء الحياة الفكرية بالمغرب الأوسط وذلك من خلال مؤلفاته التي خلفها مثل شرح جمل الخونجي في المنطق، وتلخيص ابن البناء(ابن فرحون المالكي، 1996: 205).

كما أخذ عنهما المقري (عبد الحميد حاجيات، 1982: 46 -47) قاضي الجماعة بفاس، ذكرته النصوص " أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد القرشي التلمساني الشهير بالمقري...أخذ عن مجموعة من العلماء كالآبلي وابني الإمام..." (شاوش الحاج محمد، 1995: 232)، وقد ساهم المقري في تنشيط الحركة العلمية سواء من خلال مؤلفاته التي نذكر منها كتاب "القواعد، كتاب الرقائق في التصوف، كتاب المحاضرات، وكتاب عمل من طب لمن حب" (عبد الحميد حاجيات، 1982: 48) أو من خلال جماعة العلماء الذين تخرجوا عليه مثل: لسان الدين بن الخطيب، وابن خلدون عبد الرحمن.

وأخذ عنهما كذلك الفقيه أبو العباس المديوني"...الفقيه أبو العباس أحمد بن سعيد المديوني من بني عبد العزيز من أحواز تلمسان نشأ بتلمسان واستفاد بالشيخين المذكورين..." (ابن مرزوق التلمساني، 1981: 267).

من دون أن ننسى أبا عبد الله الشريف (ت 771هـ/1369مـ) أبرز طلبة ولدي الإمام وهو "الفقيه العالم أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني...أخذ عن الشيخين أبي زيد وأبي موسى وعن شيخنا أبي عبد الله الآبلي..."(ابن خلدون يحيى، 1980، ج01: 120). بنى له السلطان أبو حمو موسى الثاني المدرسة اليعقوبية أين كان يعقد حلقات العلم ويفد عليه الطلبة.

ويعتبر أبو العباس البجائي من أبرز الأسماء التي ولجت المدرسة على عهد الشيخين فحضر مجلسهما "ولما ورد الفقيه العالم أبو العباس أحمد بن عمر البجائي على تلمسان تاجرا دخل المدرسة القديمة فحضر مجلس أبي زيد بن الإمام فألفاهم يتكلمون في قول ابن الحاجب في الأصول في حد العلم أنه صفة توجب تمييزا لا يحتمل النقيض..." (التنسي محمد، 1980: 142) ولا ندري إن طال بقاؤه في حضور مجلسهما بالمدرسة أم لا.

كما يعتبر محمد بن محمد بن الحسن اليحصبي التلمساني الذي كان حيا سنة (799هـ/ 1396مـ) من أبرز طلبة الشيخان أخذ عن مجموعة منهم ابني الإمام والآبلي فحاز رياسة العلم "...أخذ العلم عن بني الإمام أبي زيد وأخيه أبي موسى..." (ابن فرحون المالكي، 1996: 420) وكانت له معرفة خاصة لمختصر ابن الحاجب الفقهي له عليه شرح ذكر أنه قارب إكماله (ابن فرحون المالكي، 1996: 420).

من خلال الأسماء المذكورة يتضح لنا الدور الكبير الذي لعبه ولدي الإمام في تكوين الأطر من فقهاء وعلماء ومدرسين، خصوصا أن هؤلاء أصبحوا من بين أشهر علماء المنطقة فيما بعد.

زيادة على ذلك يشير ابن خلدون أن سند التعليم بالمغرب الأوسط قد ارتبط بالفقيهين ولدي الإمام كما كان عليه الحال بالمغرب الأدنى حيث كان سند التعليم في أبي عبد الله بن شعيب الدكالي حتى انتهى إلى القاضي ابن عبد السلام "...انتقل من تونس إلى تلمسان في ابني الإمام وتلميذه فإنه قرآ مع ابن عبد السلام على مشيخة واحدة..." (ابن خلدون عبد الرحمن، 2004: 144).

خاتمة:

-يحتاج تاريخ المغرب الأوسط لمزيد من البحث والتنقيب فمازالت الكثير من المواضيع التي لم يطرق بابها بالبحث والدراسة.

- تعتبر كتب الرحلة والجغرافيا كتب مهمة في مثل هكذا دراسات إذ تكمل ما ورد في كتب التاريخ العام.

- تعد مدينة برشك من أهم مدن المغرب الأوسط عامة وتيبازة خاصة خلال العصر الوسيط فكريا اقتصاديا وحتى عسكريا.

- هناك الكثير من مدن المغرب الأوسط التي تحتاج إلى نفض الغبار عن تاريخها في صورة مدينة برشك خلال العصر الوسيط.

- كان لمدينة برشك تأثير علمي واضح في الحياة العلمية للمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط ممثلة في عالميها ولدي الإمام.

- ذاع اسم مدينة برشك خلال العصر الوسيط بفضل عالميها ولدي الإمام اللذان أسس لهما السلطان الزياني مدرسة سميت باسميهما كانت بمثابة الجامعة في وقتنا الحالي ساهمت في نشر مختلف فنون العلم والمعرفة وبالأخص العلم الشرعي، كما ساهمت بفضل العالمين ولدي الإمام في تكوين أطر كان لها فضل كبير في ازدهار الحياة العلمية بالمغرب الأوسط.

- يظهر الأثر العلمي لمدينة برشك في تاريخ المغرب الأوسط من خلال الأطر التي تكونت على يد الشيخان تلك الأطر ساهمت في تكوين أطر نالت الحظوة والمكانة لدى السلاطين فيما بعد في صورة ابن خلدون وغيره ممن ذكرناه في متن البحث.

قائمة المصادر والمراجع:

1 -ابن خلدون، عبد الرحمن، (2000). **تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، بيروت: دار الفكر بيروت. ج 7.

2 -// // //، (2004). **مقدمة**، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

3 -// // //، (2006). **تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ط 2. بيروت: دار الكتب العلمية. المجلد 7.

4 -// // //،(2000) . **رحلة ابن خلدون**، ط 2. بيروت: دار الكتب العلمية .

5 -ابن خلدون، يحيى أبي زكرياء،(1980). **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد** ، تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور عبد الحميد حاجيات، الجزائر: المكتبة الوطنية، الجزائر .

6 -ابن فرحون، المالكي،(1996). **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، ط 1. بيروت:، دار الكتب العلمية.

7 -ابن مرزوق، التلمساني،(1981). **المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن**، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

8 -أبو القاسم، محمد الحفناوي،(2007). **تعريف الخلف برجال السلف، ج2**، الجزائر: صدر هذا الكتاب بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية .

9 -الآغا بن عودة، المزاري،(د ت). **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ج1** ، تحقيق ودراسة يحيى بوعزيز. دار الغرب الإسلامي .

10 -أنطوان، بشارة قيقانو،(د ت). **جدول السّنين الهجرية وما يوافقها من السنين الميلادية**، ط 3.بيروت: دار المشرق .

11 -بن قربة، صالح وآخرون، (2007). **تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، الجزائر:** منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954.

12 -التنبكتي، أحمد بابا، (2004). **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، تحقيق الدكتور علي عمر، ط 1. بور سعيد: الناشر مكتبة الثقافة الدينية.

13 -التنسي، محمد بن عبد الله، (2007). **نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان (تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان)**، حققه محمود بوعياد، الجزائر: صدر عن وزارة الثقافة.

14 -الحسن، الوزان بن محمد الفاسي، (1983). **وصف إفريقيا، ج2**، ترجمة عن الفرنسية محمد حاجي، و محمد الأخضر، ط 2. بيروت: دار الغرب الإسلامي .

15 -الحميري، محمد بن عبد المنعم، (1984). **الروض المعطار في خبر الأقطار معجم جغرافي**، تحقيق إحسان عباس، ط 2. بيروت: مكتبة لبنان .

16 -الزهري، أبو بكر، (د ت). **كتاب الجغرافية**، تحقيق محمد حاج صادق. بور سعيد: مكتبة الثقافة الدينية .

17 -شاوش، الحاج محمد بن رمضان، (1995). **باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية .

18 -الشريف، الإدريسي أبي عبد الله، (2002). **كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، المجلد 1، بور سعيد القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

19 -عبد الحميد، حاجيات، (1982). **أبي حمو موسى الزياني حياته وآثاره**، ط 2. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .

20 -عبد العزيز، لعرج وآخرون، (2007). **مساهمة الجزائر في الحضارة العربية الإسلامية**. الجزائر: منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الكرامة للطباعة والنشر والإتصال.

21 - عز الدين، ابن الأثير الجزري، (2003). **الكامل في التاريخ من سنة 489 -561هـ**، مراجعة وتصحيح محمد يوسف الدقاق، ط 4. بيروت: منشورات محمد علي بيضون، نشر دار الكتب العلمية.

22 -فؤاد، طوهارة، (2014). " **النشاط الاقتصادي في تلمسان خلال العهد الزياني (7 -9هـ/13 -15م)**"، مجلة جيل للعلوم الانسانية والاجتماعية، مجلة دورية تصدر عن مركز جيل البحث العلمي. العدد 2، ص - ص 71 -92 .

23 -مارمول،كاربخال، (1988). **إفريقيا**، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، الرباط: دار نشر المعرفة، الرباط.

24 -المقري، أبو العباس أحمد، (2004). **رحلة المقري إلى المغرب والمشرق**، تحقيق الدكتور محمد بن معمر، الجزائر: مكتبة الطباعة والنشر والتوزيع .